مفهوم «العربية المولّدة»
عند يوهان فك في كتابه «العربية» *

الدكتور أحمد محمد قدّور

جامعة حلب

١ - تمهيد

يحتل كتاب «العربية» للمستشرق الألماني «يوهان فك» (J. Fuck) مكانة مرموقة في الدراسات اللغوية التي أنشأها المستشرقون في العصر الحديث . فالكتاب يعرض بكلّ اقتدار لمسائل بالغة التعقيد تتصل بتاريخ العربية وتطوّرها ولهجاتها ممّا تنوء به جهود العصبة من أولي العزم وأهل الذكر . وهو بحقّ رائد الدراسات التطوّرية عند الدارسين من عرب ومستشرقين على حدّ سواء . إنّه - كما يقول «شبيتالر» (A. Spitaler) - نوع من تأريخ التطوّر للعربية ، أو على وجه الدقّة للعربية المولّدة(١) .

لقد أتيح لهذا الكتاب من المادة الغنية والتحليل العميق والمنهج العلمي الصارم ، ما جعله ينأى عن أن يكون مؤلفا وقتياً يطفو على سطح الحياة العلمية ثمّ يتوارى عنه بعد سنوات قليلة . ومن هنا تأتي أهمية هذا الكتاب الذي غدا واحداً من المراجع «التقليدية» في الدراسات اللغوية الحديثة . وكان من حسن

* الدراسة تتجه نحو ترجمة الكتاب التي ذاعت بين الدارسين العرب ، والتي تتحمل الكثير من تبعات المسؤولية العلمية ، ولا سيما على صعيد المصطلحات التي وردت دونما شروح كافية ، تبيّن اختلاف المفاهيم التي عبّر عنها المؤلف ، عن مثيلاتها في الدراسة العربية .

حظّ الكتاب أن قُيّض له أن يترجم إلى العربية ؛ اللغة التي درسها وأراد خدمتها[٢] .

ومع ذلك فإنّ هذا الكتاب شأنه شأن أيّ جهد إنساني معرّض للنقد ، وإعادة النظر في أكثر الجوانب التي تعرّض لها ، ولا سيّما بعد أن مضى على ظهوره في لغته الأصلية ما يقرب من نصف قرن من الزمان . فالحاجة غدت ماسة – كما أرى – لوضع مشكلة التطوّر التي عالجها الكتاب موضع البحث المدقّق . ومن اللافت للنظر حقا أن يجد الدارس معظم الباحثين العرب المحدثين يقبلون على الإفادة من هذا الكتاب دون أن يحظى بدراسة معمّقة تتناول النظرية التي بُني عليها ، أو تعالج قضية التطوّر التي تناولها فك تحت مصطلح «العربية المولّدة» وهي القضية الرئيسة في الكتاب[٣] .

وتثار حول مشكلة «التطوّر» في العربية غالبا ، شكوك تتعلق بالمرامي الخفية التي قد تكون الدافع والمحرّك لإعادة الاعتبار للّهجات العامية والاعتناء بدرسها ، ومحاولة ترسيخها على حساب «الفصحى» . إنّ هذا البحث ينتصر منذ البداية ودون تردّد لوجهة النظر القائلة باستمرار «العربية الفصحى» واقعاً لغوياً يمكن أن نصفه – مع الدكتور عبد الصبور شاهين – بأنه خالد[٤] . إذ لم ينقطع استعمالها – وإن ضاقت مجالاته أحيانا – في الألسن الناطقة بها . ولا يصحّ بحال من الأحوال تشبيه العربية الفصحى باللغات التاريخية المندثرة ، لأنها مع ما اعتراها من ضيق التداول ، بقيت لغة مسموعة ومقروءة حتى في أحلك الظروف التي مرّت بها .

وليس في هذا التمهيد تلميح لاتّهام «فك» بشيء من الانحياز ضدّ الفصحى ، أو انتصار للعاميات ، لأنّ الدارس المنصف يقرّ له بصدق النظرة والتزام الحيدة وتفهّم الكثير من مشكلات العربية دون أن يظهر عنده ذلك الروح الاستشراقي المنطلق من العداء أو الاستعلاء . وسيظهر لنا أن الوجهة الأجنبية التي لا تقرّ باستقلال الفصحى عن اللهجات - قياساً على اللغات الأجنبية - كانت المسؤولة عن البداية التي انطلق منها «فك» والتي لم تضع في مقاصدها التفرقة الضرورية بين ما اعترى الفصحى من تغيّر دلالي وأسلوبي من جهة ، وما تعرّضت له العربية على ألسنة الناطقين بها بعد الفتح من ضروب اللحن والتوليد العامي ومزاحمة الأعجمي ، ممّا أدى إلى نشأة اللهجات فيما بعد من جهة أخرى .

٢ - كتاب «العربية» : المبادىء والجوانب العامة

يبدأ المؤلف كتابه بتمهيد يشير فيه إلى أهمية الإسلام في حياة العربية ولا سيّما بعد الفتح الذي جعلها لغة عالمية تجري على ألسنة الشعوب الداخلة في الإسلام عصرئذ . كما يشير إلى الطابع المعياري الذي استمسك به اللغويون والذي أخذ به أهل الدين وأولو الأمر ، ممّا جعل العربية الفصحى نموذجاً مفروضاً ومثلاً أعلى . وهذا ما جعل قضية التطوّر تُنَحّى عن ميدان الاعتراف والقبول . هذه العقيدة - كما يقول «فك» - جعلت من العسير بمكان أن نحصل على صورة واضحة للنموّ والتطوّر الذي أصاب العربية ، ككلّ لغة حية ، في مدّة تربو على ثلاثمئة وألف عام . (فك : ١٤) .

ويشير «فك» أيضا إلى دور الأدب وقواعد اللغة التي يلاحظ بإعجاب

نضجها واكتمالها في ترسيخ واقع الفصحى لغةً للعلم والأدب والتأليف حتى العصر الحديث . ويحدّد «فك» بداية لما دعاه بالعربية المولدة حين انتقلت العربية بعد وفاة الرسول صلّى الله عليه وسلم مباشرة ، عن طريق الفتوحات الكبرى في العهد الإسلامي إلى خارج حدودها القديمة(فك : ١٧) .

أما جوانب الكتاب الأخرى فتضمّ ثلاثة عشر جانباً ، إضافة إلى ملحق درس فيه المؤلف مادة «اللحن» ومشتقاتها دراسة دلالية . وهذا عرض موجز لمضمون هذه الجوانب مع بعض التعليقات الضرورية .

١ - في العلاقات اللغوية في عهد الدولة العربية الأموية : يجعل المؤلف تاريخ هجرة القبائل العربية عقب وفاة الرسول صلّى الله عليه وسلّم سنة (١١هـ ، ٦٣٢م) إيذاناً بشروق عصر جديد للغة العربية ، هو عصر العربية المولّدة ، ثم يتجه نحو تحليل المستوى اللغوي الذي نشأ بين العرب والأعاجم زمن الفتح . ويستخلص أهم العوامل التي أثّرت في العربية الفصحى في العهد الإسلامي . وأهمّها عنده دخول العناصر الأجنبية إلى ميادين الحياة العربية أسرى حرب ، أو عبيداً وجواري ، أو جنوداً من جنود المسلمين . وكان من نتيجة هذا الاختلاط ظهور جيل من أبناء الإماء في النصف الثاني من القرن الأول أطلق عليهم مصطلح «المولّدين» . ويرى فك - مع معظم اللغويين العرب القدامى والمحدثين - أن ظهور «اللحن» كان نتيجة لهذا الاختلاط الواسع ولا سيّما على صعيد الزواج والتسرّي . وحين ينصرم القرن الهجري الأول يفشو اللحن حتى لدى ذوي المناصب الرفيعة في الدولة الأموية ، إذ لم تعد سلامة التعبير من اللحن أمراً طبيعياً . (فك : ٤٠) .

٢ - عربية الدولة ولغة الشعب في أوائل العصر العباسي : يرى المؤلف أن مرحلة جديدة في تاريخ العربية بدأت مع خلافة العباسيين ببغداد سنة (١٣٢هـ) . فالعناصر الفارسية التي أسهمت في إيصال العباسيين إلى الحكم لم تشعر بالصلة الوثقى بينها وبين حياة العرب البدوية . ولأن هذه العناصر لم تنشأ بين البدو ولم تستطع أن تجاري هؤلاء في فصاحتهم . وظهر نتيجة لدخول العناصر الفارسية الميدان الأدبي أسلوب تعبيري جديد تجلّى عند ابن المقفع وبشار بن برد . في جانب آخر بدأ اللحن ينتشر في لغة المثقفين والأدباء والأمراء ، وظهرت أحاديث مصنوعة تحثّ الناس على الإعراب وتجنّب اللحن . ويلاحظ «فك» الازدواج اللغوي الناشىء من مزاحمة الفارسية للعربية في البصرة والكوفة ، ممّا أدّى إلى كثرة الدخيل . (فك : ٩ - ٩٢) .

٣ - اللغة العربية في عصر هارون الرشيد(١٧٠ - ١٩٣هـ) : بقيت لغة البدو - كما يقول المؤلف - القدوة والنموذج الرفيع لدى اللغويين الذين كانوا في خلاف شديد مع اللهجة الدارجة بين سواد الشعب العريض . (فك : ٩٣) . من جانب آخر ظهرت أول الكتب ضمن ما سمّاه «فك» بحركة تنقية اللغة ، أي مواجهة اللحن . فقد ألّف الكسائي (ت ١٨٩هـ) رسالة فيما تلحن فيه العوام . وعمل اللحن وكثرة الخطأ واستعمال الدخيل على تغيير صورة التعبير الشعري عمّا سبق أن كانت عليه . وظهرت بعض الطوابع العامية في التعبير الأدبي . (فك : ١٠٤) .

٤ - العربية المولدة : يتناول المؤلف هنا السمات العامة للعربية المولدة ، وسنعرض لها تفصيلا في الجزء الثالث من هذا البحث .

٥ – العلاقات اللغوية في عصر المأمون وعقيدة الاعتزال الرسمية : يستشهد المؤلف بملاحظات الجاحظ حول اللهجات الدارجة في البصرة وغيرها . ويلاحظ أنّ الإعراب ما زال حيّاً على ألسنة البدو الخلّص ، فالمحادثة السليمة من اللحن كانت تُنتظر من هؤلاء . أما اللغة الدارجة على ألسنة المثقفين في القرن الثالث فقد ابتعدت بصورة مطّردة عن النموذج الفصيح . (فك : ١٣٤) . وعلى صعيد الأدب كان الشعر في نظر النحاة إبّان القرن الثالث أكثر التصاقاً بالفصحى . في حين بدأت تظهر في أشعار الفرص والمناسبات آثار اللهجات الدارجة التي أوغلت في الانحراف عن الفصحى .

٦ – العربية تصير لغة الأدب الفصحى في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري : يلاحظ المؤلف أن انحطاطاً عاماً أصاب الثقافة اللغوية ممّا دفع بابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) إلى تأليف كتابه «أدب الكاتب» لتحديد العناصر اللغوية والمعرفية العامة الواجب توافرها في الكاتب والإداري الذي يتصدّى للخدمة العامة . من علامات ذلك الانحطاط أنّ الشعر الرفيع لم يفِ بكلّ مطالب تنقية اللغة ، إذ ظهرت أخطاء كثيرة لدى البحتري وابن الرومي وبعض كبار الرجال والوزراء الذين أصبح بعضهم يتكلم اللغة الدارجة دون حرج . كما أن الكثير من النحاة لم يكونوا يستعملون اللغة الفصحى في مسامراتهم ومحاوراتهم . (فك : ١٤٨) وبذلك توطد الحدّ الفاصل بين العربية الفصحى التي صارت منذ ذلك العهد لغة العلم والأدب ، والعربية المولّدة الدارجة حتى في الأوساط المثقفة . (فك : ١٤٩) .

٧ – عربية الأدب في القرن الرابع الهجري : أخذ النموّ والانتشار اللغوي الذي بدأ في القرن الثالث يتزايد في هذا القرن ليطارد العربية

الفصحى ، ويمعن في عزلها باطّراد عن جميع مناطق اللغة الدارجة . فلم يعد يسمع رنينها في الخطاب الحيّ ، بيد أنها ظلت في الأدب الملكة المتوّجة . (فك : ١٥٠) .

٨ - العربية ولهجات البدو في القرن الرابع الهجري : صارت العربية الفصحى في أوائل هذا القرن لغة للكتابة بعد أن قطعت جميع أشواط نموّها وتكوينها . وأدت عوامل متعدّدة إلى تغيّر النظرة إلى البدو . فالغلط شاع فيهم ، كما عملت حروب القرامطة وأشياعهم البدو على تغيير نظرة الرأي العام إلى البدو عامة من المناحي الأخلاقية والحضرية . أضف إلى ذلك وجود تغيّر في قيم الذوق الجمالية ، مّما أسهم في إبعاد نموذج البدوي الفصيح عن قمة الأدب . (فك : ١٧٠) .

٩ - العربية واللغة المولّدة في القرن الرابع الهجري : يذهب فك إلى أن مجموعات من اللهجات بدأت تمتاز كلّ منها من الأخرى امتيازاً يختلف قوة وضعفاً باشتراكها في كيفية خاصة من الأصوات والصيغ وقواعد التركيب والثروة اللفظية . (فك : ١٧٤) . من ناحية أخرى بقي مقام العربية الفصحى من حيث هي لغة الأدب الوحيدة ثابتاً غير منازع ، نظراً لبقاء وحدة الثقافة في الدولة كاملة غير منقوصة .

ويرى المؤلف أنه صار على المرء عصرئذ أن يتعلم الفصحى كما يتعلم لغة ميتة داثرة (فك : ١٧٥) ، والدليل على ذلك (؟) أنّ أسمى درجات العربية كان في فارس ، لأن الناس يبذلون اجتهاداً عظيماً في دراستها .

١٠ - ظهور اللغة الدارجة في أشعار القرن الرابع الهجري : بدأ شعر

الفرص والمناسبات يحمل طابع العربية المولّدة بصورة مطردة . من ذلك إكثار ابن الحجّاج (ت٣٩١هـ) من استعمال العامي والأعجمي ومخالفته لقواعد النحو والصرف عن قصد . ومن ذلك أيضا ظهور الموشحات في الأندلس واقتباس مفردات عامية ولا سيّما في الخرجة (فك : ١٩٦) .

١١ - وصف المقدسي للعلاقات اللغوية في المحيط الإسلامي إبّان القرن الرابع الهجري : يتابع المؤلف المقدسي في كتابه «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» ليقف على وصف لهجات الأقاليم التي درسها . ويرى «فك» أن مراد المقدسي من لغة الإقليم أو المدينة لغة المثقفين لا لغة الشعب . كما يرى أن كتب وصف البلدان استعملت العربية المولّدة إلى جانب الكثير من الفارسي الدخيل . (فك : ٢١١) .

١٢ - اللغة العربية في عهد السلجوقيين : يرى «فك» أن استيلاء السلجوقيين على الحكم (٤٤٧هـ) قوّى منزلة الفارسية على حساب العربية ، فقد صارت الفارسية لغة للبلاط والأدب والشعر . ولم تعد عربية الأدب التي رأيناها في القرنين الثالث والرابع لساناً طبيعياً لطائفة من الشعوب ، بل تحولت إلى لغة أقامت قواعد النحو ومبادئها أسس تكوينها الحقيقي (فك : ٢٣٦) . ولأغراض دينية أُسِّست المدرسة النظامية ببغداد سنة (٤٥٩هـ) . وغلب على أساتذتها تكرار المؤلفات السابقة وعدم الإبداع . ونشطت حركة تنقية اللغة ، فأُلِّفت كتب متعدّدة لمواجهة اللحن الذي تفشّى كثيرا حتى لدى الفقهاء والعلماء والمحدِّثين . (فك : ٢٣٧)

١٣ - نظرة خاطفة : يتتبّع فك من خلال نظرة خاطفة تاريخ العربية

منذ سقوط بغداد بأيدي المغول سنة (٦٥٦هـ) حتى عصر المؤلف . ويمرّ بأثر النهضة الحديثة بعد حملة نابليون على مصر ، وبعث العربية الفصحى من جديد . (فك : ٢٤٢) .

ويبقى بعد ذلك الملحق الذي درس فك فيه مادة «لحن» وحاول في أثناء ذلك تتبّع نشأة اللحن وارتباطه بمبدأ تنقية اللغة .

ويلاحظ من خلال ما قدّمنا من جوانب الكتاب أن المؤلف اتبع طريقة العرض التاريخي للتطور الذي تعرّضت له العربية الفصحى ، من خلال مجموعة من المحطات الزمنية بكلّ ما فيها من علاقات ثقافية وحضارية ولغوية متعددة . وهذا المنهج هو الذي أظهر لنا الكتاب على صورة «تأريخ» للغة العربية ، على نحو ما هو معروف من «تأريخ» للآداب العربية . ولا شك في أن الجديد في هذا التأريخ هو وقوف «فك» عند عناصر محدّدة تصبّ في المآل والنتيجة في مسار التطور الذي سلكته الفصحى عبر الزمن (Diachronique) ، والذي كان وما زال صعباً تحديده ووصفه بَلْهَ تقعيده وضبطه .

٣ - مفهوم «العربية المولّدة»

يبدأ «فك» تاريخ «العربية المولّدة» حين انتقلت العربية بعد وفاة الرسول صلّى الله عليه وسلم مباشرة عن طريق الفتوحات في العهد الإسلامي الأول إلى خارج حدودها القديمة في مواطن لغوية أجنبية . (فك : ١٧) . ويلاحظ أن هذا التحديد يخالف ما أجمع عليه علماء العربية القدامى الذين جعلوا «المولّد» مرتبطاً بالدلالة اللغوية الناشئة من ظهور أجيال محدثة غلب عليها

اختـلاط الأعـراق . وقـد حـدّدوا بداية لهـذا المولد تتـأخـر عن التـاريخ الذي افـترضـه «فك» بنحـو قرن ونصف ، إذ جعلوا سنة (١٥٠هـ) حـدّاً فاصـلاً بين الفصيح والمولّد على صعيد المدن التي كثر فيها الاختلاط والتزاوج ، على حين أنهم تأخروا بهذا التاريخ حتى أواسط القرن الرابع الهجري على صعيد البوادي التي يُعرف أن أهلها باقون على فصاحتهم . فهذا الذي ارتآه فك يخالف دلالة «المولّد» لغـة لأن هذه الدلالة لم تكن قـد دلّت على الأجـيـال الجـديدة حين خرج العرب بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم من الجزيرة مباشرة ، ولأن شـيـوع الظواهر المولّدة في القرن الأول لم يكن بشـهـادة اللغـويين المتـشـددين يتجاوز أمثلة من اللحن أو الخطأ الذي لم يتعدَّ كونه ظواهر فردية . على حين أن القرن الثاني هو الذي شهـد توسّع اللحن وانحراف الألسنة ولا سيما لدى هؤلاء المولّدين ممّن لم ينشأوا في البادية ، فبدأ عصرئذ - فـيمـا نظنّ - عـهـد العربية المولّدة ، أو الكلام المولّد الذي لا يعتدّ به .

وليس في هذا التحليل انحياز إلى مفهوم اللغويين القدامى ، لأن الوقائع التـاريخـيـة لا تسـمح بحـال من الأحـوال بالزعم أن خـروج العـرب بغـتـة من جزيرتهم أدّى إلى نشـأة «العـربيـة المولّدة» . فالتـغـيّر التـاريخي بطيء ومـتـدرّج ، ولن تكون سنوات قليلة كافية لهذه البداية .

وللمـرء أن يتسـاءل حـول مفـهـوم «المولّد» عند يوهان فك ، على الرغم ممّا قـدّم من إيضاح وشـرح امـتـدّا من أول الكتـاب إلى آخـره . وللمـرء أن يتسـاءل أيضـاً عن جـدوى إلحـاق مـا ألحـقـه بكتـابه من دراسـة لمادة «اللحن» وتطوّرها الاصطلاحي ، مع أن الكتـاب هو في حـقـيـقـتـه دراسـة للعـربيـة المولّدة وليس دراسة لظاهرة اللحن .

إن الأجدى والأقرب إلى مضمون الكتاب - وليس في هذا مطالبة مفروضة من الخارج - أن تكون جهود فك قد اتجهت في «التمهيد» لدراسة مادة «المولّد» وبيان معناها الاصطلاحي ، والمرور بآراء العلماء العرب حولها ، ثم يكون بعدئذ اختياره الذي يميل إليه .

ولن يستقيم المفهوم الذي بُني عليه الكتاب عندي ما لم يتمّ التخلّي عن كلمة «العربية» في مصطلحه «العربية المولدة» لما سنذكر لاحقاً ، والاكتفاء بكلمة «مولّد» وبالمعنى الذي قصده «فك» . والدليل على ذلك أن «فك» بدأ منذ الصفحة الأولى وحتى الأخيرة من كتابه يسجّل كلّ تغيّر طرأ على العربية الفصحى وليس على العربية المولدة منذ عصر الفتوحات وحتى العصر الحديث دون أن يميز بين المصطلحات المتعدّدة التي تدلّ على ظاهرة التغيّر هذه ، أو يميز بين هذا المجال من المجالات التي شهدت هذا التغيّر أو غيره ، أو يميز بين العربية الفصحى التي بقيت فصحى ، واللهجات الدارجة التي بدأت تتوالد بوضوح نسبي - كما نظن - بعد انصرام القرن الأول .

إن الدراسة المتأنية لما أورده فك تشير إلى أن مفهوم العربية المولّدة أو المولّد عنده يماثل مصطلح (change) الأجنبي الذي يدلّ على التغيّر دون أيّ نظر معياري ، على خلاف مصطلحات أخرى قد تنبىء بهذا النظر كالاصطلاحين المعروفين بالدلالة على التطور (Evolution) و (Development) . فالمولّد إذن كما يدلّ عليه عمل فك يعني أن هناك شيئاً ما حدث للغة ، أو أن هناك تغيّرات أو ظواهر جديدة لحقت بها في فترات زمنية متعاقبة ، وعلى هذا المستوى أو ذاك من مستويات اللغة . ويشير هذا المفهوم إلى التغيّر الذي لا يكون مقصوداً من الفرد أو الجماعة . كلّ هذا حقيقة جاء من المنطلق الذي

انطلق منه «فك» وهو منطلق مستمّد من المناهج الأجنبية التي تميل إلى رصد كلّ ما يعتري اللغة على أن ذلك وقائع تسجّل دون إصدار أحكام الخطأ والصواب(٥) .

وإذا لم يركن الدارس إلى هذا الاستنتاج ، فإن الخلط الواضح بين العامي والأعجمي والمولّد واللحن والعربي القديم ، والإسلامي يبقى دون تفسير مقنع .

أما مطالبتنا المؤلف بضرورة الاقتصار على كلمة «المولّد» وترك كلمة «العربية» ضمن مصطلحه المفضّل ، فتقوم على أننا ننكر وجود هذه «العربية المولدة» خلافاً لحلمي خليل الذي عدّها المرحلة الثالثة من مراحل العربية ، إذ تسبقها المرحلة السامية والعربية القديمة من جهة ، وتليها العربية الحديثة من جهة أخرى(٦) .

إننا نرى بداية أن وجود العربية المولّدة كما ذهب «فك» سابق لأوانه ، هذا إن كان تمّ فعلاً ، إذ لا يمكن الانسلاخ عن العربية الفصحى بمجرد خروج العرب مع الفتوحات الإسلامية من الجزيرة . وإذا أردنا أن نسير وراء «فك» في هذا المفهوم وجب أن نضع آخر القرن الثالث وبداية الرابع حدّاً ، أو بداية لظهور «العربية المولّدة» ، إذ بدأت «الفصحى» تنسحب من مجالات المحادثة والاستعمال الحي كما بيّن فك مع أن في هذا ما يدعو إلى المناقشة . أما الزعم أن الفصحى بدأت تتطوّر باتجاه العربية المولدة منذ ذلك التاريخ - زمن الفتوحات - الذي افترضه «فك» فلا دليل عليه ، كما نرى .

ويحسن بنا أن نتابع «فك» في حديثه عن خصائص «العربية المولدة» لنتبين من بعد أن ما ذكره لا ينطبق إلا على العاميات . فهو يقول : «إن اللغة

الدارجة التي كانت تتفاهم بها الطبقات الوسطى والدنيا من سكان المدن منذ نشوئها في عصر الفتوحات الإسلامية الأولى تعدّ عربية مولّدة في نظر التاريخ اللغوي» . إذن فالمقصود هو اللغة الدارجة التي تركت الإعراب وتميّزت من العربية الفصحى في المادة الصوتية وصوغ القوالب وتركيب الجمل والقواعد النحوية والثروة اللفظية . ثم يرى أن ترك الإعراب دعا – على صعيد هذه اللغة الدارجة أو المولّدة – إلى التجديد في علاقات مواقع الكلمات . (فك : ١٠٩ – ١١٤) .

ويبرّر إنكارنا للعربية المولّدة أننا نرى أن التمييز بين الفصحى وغيرها من المستويات أمر ضروري في جميع الدراسات اللغوية . فإن أقررنا بذلك صار تتبّع المراحل التاريخية للعربية مفيداً وواضحاً . فالعربية الفصحى فيها عناصر جاهلية نضجت قبل الإسلام حين اتُّخِذت لساناً أدبياً ولغة مشتركة بين القبائل العربية في الجزيرة وعلى أطرافها من الأقاليم العربية المجاورة . ثمّ جاء الإسلام فأدخل في عناصرها أشياء درسها العلماء تحت مصطلح «الألفاظ الإسلامية» التي يندرج تحتها ظواهر لفظية ودلالية وأسلوبية[٧] .

وحين واجهت العربية الفصحى حالة جديدة بعد الفتوحات بدأت تتخلّلها عناصر جديدة ، أهمّها التغيّر الملحوظ في استعمال الأعاجم لها ، ثمّ في الانحراف الإعرابي وسواه ممّا دُرس تحت مصطلح «اللحن» . هذا التغيّر الذي يمكن أن نجعل رأس المئة الثانية بداية واضحة له ، أخذ ينشعب في اتجاهين ما زالت السنون تزيد المسافة بينهما :

الأول : تغيّر على صعيد «الفصحى» التي بقي الإعراب وسائر الأنظمة

الصوتية والصرفية والتركيبية علامات لا يخطئها النظر في دلالتها على المستوى الفصيح . ويمكن أن تحدّد معالم هذا التغيّر في مجالات ثلاثة هي :

أ) الثروة اللفظية ، وذلك عن طريق الاشتقاق القياسي الذي تولّد منه الجمّ الغفير من المفردات الجديدة والمصطلحات الأدبية والعلمية والدينية وسوى ذلك مّما هو معروف على صعيد الاصطلاحات . وعن طريق الدخيل الذي استوعبت منه العربية الفصحى الكثير أيضاً ، ولا سيما في الاصطلاحات نفسها .

ب) التغيّر الدلالي ، وذلك بالتغير الطارىء على العديد من الدلالات توسيعاً وتضييقاً ونقلاً عبر المجاز وغيره مّما دعت إليه حاجات المجتمع الجديد .

ج) التجديد الأسلوبي ، وذلك باستخدام إمكانات تركيبية كامنة في عمق الجملة العربية ، مّما أظهر أشكالاً من التعبير ضمن إطار الفصحى ، تلويناً فنياً ، أو تحكّماً في طول الجمل وقصرها ، أو شيوع نمط من التراكيب على حساب غيره .

الثاني : تغيّر على صعيد «العاميات» التي تخلّت بداية عن الإعراب الذي يعدّ خصيصة بارزة وعلامة مميّزة للفصيح من العامي ، وهذا ما ذهب إليه «فك» حقاً . «إن التحرّر من الإعراب قرينة أكيدة على العربية المولّدة ، لا العكس ، أي أنه ليست العربية المولّدة منحصرة في التحرر من الإعراب» (فك : ١٥) . ويمكن أن يشير المرء إلى معالم هذا

التغيّر إضافة إلى التخلي عن الإعراب حين يلاحظ التحريف الذي اعترى الأصوات والتغيّر الذي طرأ على الأبنية الصرفية ، والتصرّف بالدلالة تصرّفاً واسعاً ، مع إفساح للمجال أمام الأعجمي دون حدود أو ضوابط .

وبالنظر إلى ما سبق من التفرقة بين هذين الاتجاهين ، نرى أن «العربية المولّدة» أمر لا وجود له ، لأن الموجود حقاً هو العربيةالفصحى التي اعترتها مظاهر التغيّر التي حدّدناها سابقاً ، والتي يمكن أن تشير إليها كلمة «المولّد» . فهذه الفصحى إذن - كما نرى - تعرّضت بعد القرن الأول لضروب من «المولّد» على صعيد زيادة الثروة اللفظية والتغيّر الدلالي والتجديد الأسلوبي مع بقاء الأنظمة الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية المعجمية مستمرة لتشكل الملامح المميزة للاستعمال الفصيح أدباً وحديثاً ، مشافهة ومكاتبة . وعندما نقول : إنها فصحى تعرّضت للمولّد ، نُخرج سائر المستويات الأخرى كاللهجات العامية والرطانات الأعجمية التي بدأت زمن الفتوحات ثم توسّعت بعدئذ .

ويُحمد لحلمي خليل أنه فرّق بين مظاهر التغيّر التي جمعها فك تحت عنوان «المولّد» ، إذ عدّ المولّد تطوّراً يتصل بالدلالة عموماً وهو تطوّر مقبول ، على حين أن مظاهر التغيّر الأخرى تُرفض لأنها تهدّد كيان العربية[٨] . كما يُحمد له تفريقه بين ما طرأ على العربية الفصحى من تغيّر ، وما شهدته العاميات من انحراف واسع .

غير أن حلمي خليل لم يدقّق في الاستعمال حين قبل مصطلح «العربية المولّدة» ، على أنه مرحلة من مراحل العربية كما مرّ بنا ؛ إذ وقع في تناقض

واضح ، لأنه ذكـر فـي نهايـة تحليله لمفهوم فك للمولـد أن العربيـة المولّدة (New - classical Arabic) هي اللغة الي نشأت بعد استقرار الفتح الإسلامي في الأمصار المفتوحة نتيجة لاختلاط العرب بغيرهم من الأمم والشعوب الأخرى ثقافياً وجنسياً ، وامتازت عن العربية القديمة بتلك الخصائص التي ذكرناها . ثم عدّ العربية الحديثة (Modern Arabic) المرحلة الرابعة من حياة العربية[٩] .

وبغضّ النظر عن الزعم أن العربية المولّدة «لغة» نشأت بعد استقرار . . . إلخ ، نرى أن حلمي خليل سبق أن ذكر أن العربية القديمة لم ينته أمرها ولم تغلبها تلك العربية المولدة بأسلوبها المتميز ، وإنما كان لكلّ منهما في الحقيقة تيار يسير فيه ومناطق نفوذ خاضعة لهذه اللغة أو تلك ، فكانت العربية القديمة توجد بصورة أو بأخرى في بيئات العلماء من أصحاب اللغة والقرآن والحديث ، بينما كانت العربية المولدة تسري خارج بيئات هؤلاء العلماء بين عامة المثقفين وبعض الكتاب[١٠] . . . .

فكيف يوفّق الباحث بين استمرار العربية القديمة ويقصد «الفصحى» في التداول إلى جانب ما دعاه بالعربية المولّدة ، وبين ما زعمه من أن العربية المولّدة لغة نشأت بعد الفتح وهي تمثل مرحلة تلي العربية القديمة مع أنهما كانتا على قوله الآخر متعاصرتين؟

ليس هناك منفذ من هذا التناقض إلا بالإقرار بوجود العربية الفصحى واقعاً لغوياً مستمراً حتى العصر الحديث ، ثم يمكن للدارس بعد ذلك أن يلاحظ أن هناك «مستوى» (Niveau) لغوياً «مولّداً» شاع لدى عامة المثقفين

في ذلك العصر إلى جانب « المستوى» المحافظ الذي استمسك به فريق من الأدباء والشعراء .

كذلك الشأن حين الحديث عن العربية الفصحى في العصر الحديث . فالفصحى القديمة لها قوانين وتقاليد راسخة تحكم الفصحى الحديثة مع تأثر ملحوظ بالأساليب والمفردات الجديدة . لكن ذلك ليس بمضعف من العلاقة الوثيقة بين كلتيهما . معنى ذلك - كما يقول الدكتور عبد الصبور شاهين - أن العربية الفصحى ذات واقع لغوي حديث هو استمرار لواقع لغوي فصيح سبقه مع وجود اختلاف بين كلا الواقعين شأن الكائن الحي المتطور(١١) .

وهكذا يتبين للدارس أن مصطلح «العربية المولدة» مصطلح غير واضح المعالم ، وليس أدلّ على ذلك من أنّ ما قصده فك بالعربية المولّدة ينطبق على اللهجات الدارجة ، على حين أن ما استنتجه حلمي خليل جعل العربية المولّدة طوراً من أطوار العربية ، يلحق بالفصيح دون العامي ، والفرق بينهما كبير .

وليس في الدعوة إلى التخلي عن مصطلح «العربية المولّدة» إنكار لوجود العاميات بوصفها طاقة لغوية تختلف عن الفصحى بكلّ مستوياتها ؛ إنما هو تسمية للأشياء بأسمائها ، واحتراز من الخلط بين الفصحى والعاميات .

٤ - التغيّر اللغوي بين المولّد واللحن

سبقت الإشارة إلى أن «يوهان فك» ألحق بكتابه دراسة لمادة «اللحن» ، كما سبقت الإشارة إلى أنه تتبّع شيئاً من تاريخ مشكلة اللحن ، وهو ما دعاه

بمبدأ تنقية اللغة . ويلاحظ أن «فك» ضمّ مظاهر اللحن إلى ما أسماه «العربية المولّدة» .

فهو يرى على سبيل المثال أن حملة الحريري (ت ٥١٦ هـ) - صاحب درّة الغواص في أوهام الخواص - على اللحن لم تحتدم تجاه أخطاء متفرقة من الحماقات اللغوية ، أو الاستعمالات الشعبية ، بل هي موجهة إلى روح العربية المولّدة على الإطلاق . (فك : ٢٢٥) .

وفي الحق أن «فك» يخالف في هذه الملاحظة ما تداوله اللغويون التالون من الزعم أن كتاب الحريري هو في لحن الخاصة دون العامة ، بل إنه ليذهب مذهباً أبعد حين يرى أن ما جاء لدى الحريري يمثّل روح العربية المولّدة . وإن أمثلة كثيرة أوردها فك من هذا النحو منذ حديثه عن الكسائي (ت ١٨٩هـ) صاحب أول مصنف في اللحن تُظهر أنّه جعل اللحن جزءاً من مظاهر العربية المولدة .

ومع أن في تراثنا اللغوي ما يشير إلى تداخل ملحوظ بين مصطلحي : المولّد والعامي ضمن كتب اللحن ، فإننا لا نستطيع تفسير ما ذهب إليه «فك» آنفا على أنه متابعة غير مدقّقة لآراء العلماء العرب القدامى . إنما نظنّ أن مفهوم فك للعربية المولّدة بما حشد له من مظاهر هو المسؤول عن جعل اللحن جزءاً من المولّد .

والسبب فيما نذهب إليه هو اختلاف الاعتبارات المنهجية ، فاللغويون العرب القدامى انطلقوا في تعريفهم للمولّد من قواعد الاحتجاج التي جعلت منتصف القرن الثاني الهجري حدّاً فاصلاً بين مرحلتين : ضمّت الأولى ما

صحّ بحسب معاييرهم من كلام الجاهليين والمخضرمين والإسلاميين المتقدّمين حتى سنة (١٥٠هـ) . على حين أن الثانية بُدئت بمن سُمّوا بالمولّدين الذين لا يحتجّ بكلامهم تغليباً لعنصر الزمن على ما سواه . واستناداً إلى هذا جُعل «المولَّد» صفة للكلام الذي استعمله الناس قديماً بعد عصر الرواية والاحتجاج[١٢] .

ومع ذلك نرى أن عناصر هذا المولّد بقيت ضمن إطار العربية الفصحى كما ذكرنا آنفاً . فالمولَّد اتجه إلى الوفاء بمتطلبات التطوّر اللغوي مُلاحظاً أو غير ملاحظ ، لأنه يجري مجرى كلام العرب ، ولمبلغ الحاجة إليه ولا سيما في التطور العلمي والثقافي . ولو أنّ الدارس قبل بآراء اللغويين التي ترفض هذا المولّد نظرياً لما استطاع أن يقف على مصطلح واحد دون أن يلاحظ أنه مولّد فعلاً . لذلك نفترض أن «المولّد» استمر يجري في الفصحى زمناً ، لأنه ظاهرة تطوريّة تجعل اللغة مواكبة للزمن والمجتمع والثقافة .

أما «اللحن» فهو ظاهرة انبثقت أصلاً في الطبقات الدنيا ، ثم تسرّبت إلى ما فوقها من الطبقات الاجتماعية حتى شملت صنوفاً من الناس مختلفة . ويبدو أن إهمال الإعراب وتجاوز القواعد الصرفية ، وكثرة الإبدالات الصوتية جعل العلماء يتنبهون على مخالفة اللحن للعربية الفصحى مخالفة تهدّد كيانها في الصميم . ويلاحظ أن بدايات اللحن كانت أمثلة ممّا يتخاطب به الناس في حياتهم . وقد تضافرت عوامل كثيرة على الاتساع في اللحن لدى هؤلاء إلى أن ظهرت اللهجات العامية الدارجة .

نخلص من هذا إلى أن مفهوم «اللحن» أكثر تحديداً من «المولّد» ، وأقرب

منه إلى لغة العامة ، وأوسع منه مجالاً . فاللحن كما دلّت الأمثلة المدروسة منه يشمل الجوانب اللغوية كافة في مستوياتها الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية . وهو أيضاً ميدان للتأليف الواسع والواضح المقاصد ، على خلاف المولّد كما رأينا .

إننا نرى أن مفهوم التغيّر الذي أخذ به «فك» للدلالة على «العربية المولّدة» كما استنتجنا في موضع سابق ، هو المسؤول عن الخلط بين الظواهر التي انبثقت عند العوام ممّا يندرج تحت «اللحن» والظواهر التي لوحظت في لغة الشعر والأدب والاستعمال الرفيع ممّا يندرج تحت «المولّد» .

ثم إننا نلاحظ أن هذا المفهوم المنطلق من المنهج الأوربي الوصفي جعل فك يعمّ في تقصيه جميع الجوانب اللغوية على صعيد واحد . إذ جمع أمثلة تتصل بالأصوات والصرف والنحو والدلالة . وهذا ما قرّب عمله من محتوى مصنفات اللحن .

إن دراسة «العربية المولّدة» - كما فهمها «فك» - يمكن أن تكون ذات جدوى لو أنها عنيت بتاريخ نشوء الظواهر العامية أو اللهجية بعد الإسلام دون أن تتطرق إلى الفصحى . ولا شك في أن مصنفات اللحن بحكم طبيعة تأليفها ، إذ سجلت الكثير من الاستعمالات العامية والأمثلة اللهجية ، هي من أكثر المصنفات اللغوية عندنا قرباً من ظاهرة التطوّر بغضّ النظر عن الوجهة المعيارية .

ولقد تبين لي أن في العديد من مصنفات اللحن درساً تطوّرياً ناضجاً من الوجهة اللغوية ولا سيّما ما اتصل بالدلالة . ولن يعيق الدارس ههنا أنّ ما

أورده المصنفون حُكم عليه بالخطأ أو الصواب ، إذ ليس هناك ما يمنع الإفادة من المعطيات دون التقيّد بالمقاييس ، فلا بدّ من أن تختلف مقاييسنا عن مقاييس القدماء .

ويكفي المرء أن يشير إلى أن الأقسام التي دُرست فيها أنواع الدلالة ضمن مصنفات اللحن ، هي نفسها لدى علماء الدلالة المحدثين ، من تعميم وتخصيص وانتقال من مجال إلى آخر . إضافة إلى معطيات أخرى كثيرة يمكن للدارس أن يتقرّاها ، كأسباب التطوّر ، وصلته بصنوف الناس ومهنهم وما إلى ذلك .

ومع ذلك ، ينبغي على الدارس أن يحترز من بعض الآراء المسبقة التي تزعم أن مصنفات اللحن تسجّل لهجات عربية ذات طوابع محلية ، كأن تكون لهجة لمدينة أو لقطر من الأقطار «لهجة صقلية ، ولهجة بغداد ، ولهجة الأندلس . . .» . لقد بيّنتْ دراستي لنحو عشرين كتاباً من كتب اللحن والتثقيف اللغوي ، أن من المبالغة توقّع العثور على لهجات متباينة لها خصائص محلية واضحة . فقد دلّ تحليل المئات من الأمثلة على أن الأمور التي تربط بين ما عدّ في العامي الملحون على اختلاف الأقطار التي جرى فيها والعربية الفصحى ، هي أوثق مّما كان يُظنّ بكثير .

وفي الختام نقول : إن «فك» استطاع بمهارة وعمق نادرين أن يجمع أشتاتاً غير مؤتلفات من النصوص والآراء والمعلومات المتنوّعة لينشىء منها تاريخاً لتطور العربية ونشأة لهجاتها . غير أن عمله بقي دون ما يؤمَّل له من النجاح . إذ ظل - كما أرى - في دائرة «التاريخ» العام للغة العربية ، مع ما تتصف به مثل هذه الدراسات التاريخية من تعميم واتساع زمني وتبسيط

للكثير من المشكلات وعدم تدقيق في المصطلحات ، ولا سيّما في هذا المعترك الصعب ، وهو «تاريخ» تطوّر العربية ، فقد سلك فيه «فك» طريقاً غير ممهّدة ، بل لعلّه من أوائل السالكين فيها .

ومعلوم أن دراسة التطوّر اللغوي عندنا هي من أصعب الدراسات منهجاً وأكثرها تشعباً . ولذلك يجد المرء عذراً ليوهان فك حين اضطرب عمله في بعض جوانب الكتاب . ولا شك في أن عمل «فك» كان أقرب الأعمال إلى عمل عالم الآثار الذي يجهد وهو يزيل التراب عن اللقى الدفينة لإعادة تشكيل التاريخ الذي تدلّ عليه هذه اللقى ، وإن كانت أجزاء محطمة . إن دراسة وافية لمعالم التطور في العربية عامة ما تزال - مع الافتقار إلى نضج المنهج وجمع المواد الدالّة على التطوّر باتساعها وتعدّد جوانبها - ضرباً من الظفر بعنقاء مغرب .

الحواشـــي

(١) انظر : فك ، العربية ، ترجمة د . رمضان عبد التواب ، الخانجي بمصر ، ١٩٨٠م ، ص٥ (من تعليقات شبيتالر على الكتاب) .

(٢) ترجمه الدكتور عبد الحليم النجار رحمه الله ، وصدر عام ١٩٥١م ، كما ترجمه الدكتور رمضان عبد التواب ، وصدر عام ١٩٨٠ ، وعلى الترجمة الثانية اعتمدنا في هذا البحث .

(٣) حتى تعليقات شبيتالر لم تعالج القضية الرئيسة في كتاب فك ، مع أنها تعرّضت لمسائل مهمة كنشأة الفصحى وصلتها باللهجات ووجود الإعراب وسوى ذلك . وتجدر الإشارة إلى أن الدكتور حلمي خليل تعرّض لدراسة مفهوم «المولّد» عند يوهان فك في سياق الحديث عن قضية المولّد التي جعلها عنواناً لكتابه : المولّد : دراسة في نمو وتطور اللغة العربية بعد الإسلام ، الهيئة المصرية العامة للكتاب - فرع الإسكندرية ، ١٩٧٨ ، وسنشير إلى أهم آراء الدكتور خليل في تضاعيف بحثنا هذا .

(٤) انظر كلمة الدكتور شاهين في مقدمته لكتاب فليش ، العربية الفصحى ، دار المشرق ، بيروت ، ١٩٨٣ ، ص٩ .

(٥) يميل حلمي خليل إلى أن فك كأنه تمثّل تعريف ثعلب للمولّد عندما سئل عن التغيّر فقال : هو كلّ شيء مولد وهذا غير صحيح لاختلاف الاعتبارات ، فثعلب وغيره من قدامى اللغويين يجعلون مظاهر التغيّر التي طرأت على العربية بعد عصر الاحتجاج من المولّد المرفوض أياً كان ،

على حين أن «فك» ينطلق من مفهوم وصفي غير معياري ، ولذلك يرى جميع المظاهر الطارئة من المولد بمعنى التغيّر كما ذكرنا .

(٦) انظر : خليل ، د .حلمي ، المولّد ، ص ٥٤١ - ٥٤٢ .

(٧) انظر : السيوطي ، المزهر ، تحقيق محمد أحمد جاد المولى وعلي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية ، د .ت ، ٢٩٤/١ وما يليها .

(٨) انظر : خليل ، والمولّد ، ص ٥٤١ .

(٩) انظر : المصدر السابق ، ص ٥٤٢ .

(١٠) انظر : المصدر نفسه ، ص ٥٢٧ .

(١١) انظر : فليش ، العربية ، من مقدمة المعرّب ، ص ١٠ .

(١٢) انظر : المعجم الوسيط ، إصدار مجمع القاهرة ، ١٦/١ .